إذن : فالنار مثوى هؤلاء الذين عملوا من أجل الدنيا دون إيمان بالله ، فقد أخذوا حسابهم فى الدنيا ، أما عملهم فقد حبط فى الآخرة ، والحَبَط هو انتفاخ الماشية حين تأكل شيئًا أخضر لم ينضج بعد ، ويقال فى الريف عن ذلك : « انتفخت البهيمة » أى : أن هناك غازات فى بطنها ، وقد يظنها الجاهل سِمْنَةً ، لكن هذا الانتفاخ يزول بزوال سببه .

وعمل الكافرين إنما يحبط فى الآخرة ؛ لأنه باطل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ[1] مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

والبيِّنة[2] هى بصيرة الفطرة السليمة التى تُلفت الإنسان إلى وجود واجب الوجود ، وتوضِّح للإنسان أن هذا الكون الجميل البديع لا بُدَّ له من واجد .

وهكذا تكون الهداية بالبصيرة والفطرة .

---

(١) المرية : الجدل والشك وكذلك التمارى والامتراء والمراء والمماراة . قال تعالى : ﴿ فلا تُمار فيهم إلاَّ مراءً ظاهرًا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف] ، وقال تعالى : ﴿ فلا تكونَنَّ من المُمترين ﴿١٤٧﴾ ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ فبأىِّ آلاء ربِّك تتمارى ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم] [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) بان الشىء يبين بياناً : ظهر واتضح ، فهو بيِّنٌ وهى بيِّنةٌ أى : ظاهر ، وظاهرة . ويستعمل البيِّن والبيِّنة بمعنى المُظهر والمُظهرة ، والموضِّح والموضِّحة . قال تعالى : ﴿ كم آتيناهم مِّن آية بيِّنة .. ﴿٢١١﴾ ﴾ [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها ، أو هى مُبيِّنة للحق مُؤيِّدة له ، مُظهرة لأمره ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الكهف] أى : ظاهر واضح أو مُوضح مُظهر للحق [القاموس القويم] .

والعربى القديم حين سار فى الصحراء ووجد بَعْراً مُلْقًى فى الصحراء ، ورأى أثر قدم ، فقال : «البَعْرة [١] تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، وسماء ذات أبراج [٢] وأرض ذات فجاج [٣] وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل كُلُّ ذلك على اللطيف الخبير ؟ » [٤] .

وهكذا اهتدى الرجل بالفطرة ، وهى بيِّنة من الله .

وقد أودع الله سبحانه فى كل إنسان فطرة ، وبهذه الفطرة [٥] شهدنا فى عالم الذَّرِّ .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

إذن : فالبيِّنة هى إيمان الفطرة المركوز فى ذرات الأشياء .

وقد تُضبِّب [٦] الشهوات هذا الإيمان ، فلا يحمل نفسه على المنهج فيرسل الحق سبحانه رحمة منه رسلاً تذكِّرنا بالبينات الأولى ، وتدلنا على العلل

---

(١) البعرة : واحدة البعر ، وهو رجيع (روث) ذوات الخُفّ والظلف من الحيوانات .

(٢) الأبراج : جمع بُرْج ، وهى منازل الأفلاك فى السماء أو هى الكواكب . وقيل : هى النجوم . [لسان العرب . مادة : برج] .

(٣) الفجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح]. وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ [الأنبياء] .

(٤) هذه العبارات من خطبة خطبها قُسُّ بن ساعدة الإيادى فى الجاهلية . كان أولها : أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . انظر البيان والتبيين للجاحظ (١ / ٣٠٨) .

(٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٣) والطيالسى (٢٤٣٣) ، والترمذى (٢١٣٨) .

(٦) الضَّبّ والتضبيب : تغطية الشىء ودخول بعضه فى بعض . والضبابة : سحابة تُغشِّى الأرض كالدخان وقيل : الضباب والضبابة : ندىً كالغبار يُغشِّى الأرض بالغدوات [لسان العرب - مادة : ضبب] .

والأحكام حتى تنضمَّ البينة من الرسل على البينة من الفطرية فى الكائن .

وهكذا يبيِّن الحق سبحانه وتعالى مناط[١] الاقتناع بدين الله ، فقد يكون هذا الأمر مجهولاً للخلق ، فيريد سبحانه أن يبيِّن لنا أن هذا الجهل هو جهل غير طبيعى ؛ لأن الفطرة السليمة تهتدى قبل أن يجىء رسولٌ يُلْفتنا إلى القوة العليا التى تدبِّر حركة هذا الكون .

وقد ضربت من قبل مثلاً لذلك بمن سقطتْ به طائرة فى الصحراء ، لا ماء فيها ولا طعام ولا أنيس ولا مأوى ، ثم غلبه النوم فنام ، وحين استيقظ وجد مائدة منصوبة عليها أطايب الطعام وأطيب الشراب ، ووجد صواناً[٢] منصوباً ليأوى إليه ؛ فلا بد لهذا الإنسان أن يدور بفكره سؤالٌ : من صنع هذا ؟

وهو سيسأل نفسه هذا السؤال قبل أن يستمتع بشىء من هذا ، خصوصاً وأنه لم يجد أحداً يقول له : أنت فى ضيافتى .

إذنْ : فلا بد أن يفكر بعقله .

وكذلك الإنسان الذى طرأ على الوجود ، وما ادَّعى واحدٌ من خَلْق الله تعالى أنه خلق هذا الوجود ، وما ادَّعى أحدٌ أنه خلق السموات والأرض ، وما ادَّعى أحدٌ أنه سخَّر كلَّ ما فى الكون لخدمة الإنسان[٣] .

وكان من الواجب على الإنسان قبل أن ينعم بهذا ، أن يفكر : من الذى صنع له كل ذلك ؟ فإذا جاء رسول من جنس الإنسان ليقول له : أنا جئت لأحل لك اللغز المطلوب لك .

---

(١) مناط الشىء : كل ماتعلَّق به من أمور . ونيطَ به الشىء : وُصِلَ به . [اللسان : مادة (ن و ط) بتصرف]

(٢) الصوان : الوعاء الذى تُصان فيه الثياب ، أو توضع فيه الأطعمة . انظر [اللسان - مادة صون] .

(٣) يقول تعالى فى سورة النحل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) ﴾ [النحل] .

هنا كان على الإنسان أن يرهف سمعه لذلك الرسول ؛ لأنه قد جاء ليحلَّ للإنسان أمراً يشغل باله.

ومن لطف الله سبحانه بنا أنه لم يطلب منا مقدَّماً أن نفكر في ذلك ، بل تركنا فترة طويلة بلا تكليف في هذه الدنيا ، لينعم الإنسان بخير ربه ، وبعد ذلك إذا ما جاء اكتمال الرشد ونضج ، ولم يكن مكرهاً ؛ فالحق سبحانه وتعالى يكلفه بتكاليف الإيمان.

ولا بد للإنسان أن يتساءل: فكل شيء – مهما كان تافهاً – لا بد له من صانع ، والمصباح الذي يضيء دائرة قطرها ٢٠ متراً ، عرفنا صانعه ، ودرسنا المعامل التي أنجزته ، والإمكانات التي تم استخدامها ، والمواد التي صنع منها ، أفلا نعرف تاريخ هذه الشمس ، ومن جعلها لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى وقود ولا إلى قطع غيار ، وتنير نصف الكرة الأرضية ؟

هذه مسألة كان يجب أن نبحثها ؛ لنرى آفاق تلك البينة ، بينة نور وقوة وفطرة ، يهبها الله للإنسان المفكر ؛ ليهتدي إلى أن وراء هذا الكون خالقاً مدبراً.

فإذا ما جاء إنسان مثله ليقول له: إن خالق الدنيا هو الله تعالى ، وهو سبحانه يطلب منك كذا وكذا ، كان أمراً منطقياً وطبيعياً أن نسمع لهذا الإنسان ونطابق ما يقول على إحساس الفطرة ورؤية البينات.

إذن: فنحن نصل إلى المجهول أولاً بالفطرة ، وقد نصل بالبديهة التي لا تشوبها[1] أدنى شبهة ، فأنت حين ترى دخاناً تعتقد بالبديهة أن هناك ناراً، وحين تسير في الصحراء وترى خضرة ؛ ألا تعتقد أن هناك مياهاً ترويها؟

---

(١) أي: لا تختلط به شبهة ، أي: الفكر البعيد عن الأهواء.
والشوب: ما اختلط بغيره من الأشياء ، وبخاصة السوائل ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧)﴾ [الصافات]. ويقال: سقاه الذوب بالشوب: العسل بما يشاب به من ماء أو لبن. [المعجم الوسيط].

هذه - إذن - أمور تعرفها بالبديهة ، ولا تحتاج إلى بحث أو جهد.

وهناك أمور قد تتطلب منك جهداً عقلياً تبحث به عما بعد المقدمات ، مثل الجهد العقلى الذى استدل به العربى على أن هناك إلهاً خالقاً يُدير هذا الكون ، فاستدل من البعرة على وجود البعير [1] ، وأن أثر القدم يدل على المسير ، واستنتج من ذلك أن الكواكب ذات الأبراج ، والأرض ذات الفجاج ، والبحار ذات الأمواج ، كلها أمور تدل على وجود اللطيف الخبير.

كل هذه الأمور لم يقدر العقل إلا على الحكم عليها جملة ، وإن لم يعرف التفصيل.

لقد عرف العقل أن وراء هذا الكون خالقاً ، صانعاً ، حكيماً ، لكنه لم يعرف اسماً له ، وهذا أمر لا يعرفه الإنسان بالعقل ، ولا يعرف أيضاً ما هو المنهج المطلوب لهذا الخالق ، وبماذا يجزى المطيع له ، ولا بماذا يعاقب العاصى له.

إذن : لا بد من بلاغ عن الله تعالى يدل على القوة التى اقتنعت بها جملة.

والمفكرون بالعقل فى الكون يعلمون أن وراء هذا الكون خالقاً ، لكن لا يعرفون اسمه ، ولا مطلوبه.

إذن : فأنت لا تعرف اسم الله إلا منه ، عن طريق الوحى إلى رسوله ، ولا تعرف مطلوب الله إلا من الرسول الذى أنزل عليه البلاغ.

ومن رحمة الله بالإنسان أنه سبحانه قد أرسل رسولاً ، ومع هذا الرسول معجزة هى القرآن ؛ لأن العقل حتى حين يهتدى إلى قوة القادر الأعلى سبحانه ، فإنها ستظل بالنسبة له مبهمة ، وحين أنزل الحق سبحانه القرآن الكريم فقد أنزله رحمة بعباده وبينة لهم.

---

(١) البعرة : رجيع (روث) ذوات الخف وذوات الظلف من الحيوانات. والبعير : ما صلح للركوب والحمل من الإبل ، وذلك إذا استكمل أربع سنوات. ويقال للجمل والناقة : بعير. والجمع : أباعر ، وأباعير ، وبعران. [المعجم الوسيط].

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ[1] مِّنْهُ ..(١٧) ﴾ [هود]

فالقرآن حجة ونور، وهو يهدى البصيرة الفطرية الموجودة فى الإنسان ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ..(١٧) ﴾ وهو من أنزل عليه الوحى، ويخبرنا عن الحق سبحانه وتعالى ما يوضح لنا أن الخالق الأعلى والقوة المطلقة هو الله سبحانه، ويوضح لنا الشاهد مطلوب الله تعالى.

ونحن هنا أمام ثلاثة شهود:

الشاهد الأول: هو الحجة والبينة.

والشاهد الثانى: هو البرهان والبصيرة التى يهتدى إليها العقل، والرسول هو من يبين لنا المنهج بعد الإجمال.

وهذا الرسول جاء من قبله كتاب موسى:

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ..(١٧) ﴾ [هود]

وهذا هو **الشاهد الثالث**.

ومن لا يلتفت إلى المدلول بالأدلة الثلاثة مقصرٌ؛ فمن عنده تلك البينة، ومن سمع الشاهد من الرسول، والشاهد الذى قبله، وهو كتاب موسى

(١) فى تأويل هذا الشاهد أقوال كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٣٤).
١- أنه محمد ﷺ.
٢- أنه جبريل عليه السلام.
٣- أنه على بن أبى طالب.
٤- القرآن فى نظمه وبلاغته، والمعانى الكثيرة منه فى اللفظ الواحد.
٥- الإنجيل. فهو يتلو القرآن فى التصديق وإن كان قبله.
٦- العقل الذى يتلو معرفة الله التى أشرقت لها القلوب.

قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٤٠) بعد أن ذكر الأقوال الثلاثة الأولى: «الأول والثانى هو الحق، وكلاهما قريب فى المعنى؛ لأن كلاً من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة، وقيل: هو على، وهو ضعيف لا يثبت له قائل. المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها».

عليه السلام وشاهد [1] بعده إلى نفس قوم موسى لا بد أن يقوده ذلك إلى الإيمان.

وقول الحق سبحانه:

﴿ أُوْلَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. (١٧) ﴾ [هود]

إشارة إلى من التفتوا إلى الأدلة: بينة، وشاهداً، وشاهداً من قبله.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ [2] فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ..(١٧) ﴾ [هود]

والكفر - كما علمنا - هو الستر، والكفر في ذاته دليل على الإيمان، فلا يكفر أحد بغير موجود.

فوجود المكفور به سابق على الكفر، والكفر طارىء عليه.

إذن: فالكفر طارىء على الإيمان؛ لأن الإيمان هو أصل الفطرة.

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ [3] مَوْعِدُهُ ..(١٧) ﴾ [هود]

وكلمة «أحزاب» جمع حزب. والحزب هو الجماعة الملتقية على مبدأ تتحمس لتنفيذه، مثل الأحزاب التي نراها في الحياة السياسية، وهي

---

(١) المقصود به هنا الإنجيل الذي أرسل به عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل.

(٢) الأحزاب: جمع حزب. وهو الجماعة من الناس اجتمعوا على أمر واحد سواء أكان خيراً أو شراً.
يقول تعالى عن حزب الخير: ﴿ .. أُوْلَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة].
وقال تعالى عن حزب الشر: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ [المجادلة].
والمقصود بالأحزاب هنا أهل الملل كلها من غير ملة الإسلام. قاله القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٣٥).

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - حديث (٢٤٠).

أحزاب بشرية تتصارع فى المناهج والغايات ، وهم أحرار فى ذلك ؛ لأنهم يتصارعون بفكر البشر .

أما فى العقيدة الأولى ، فَمنَ المُخطِّط الأعلى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، فالمنهج يأتى منه ؛ لأن هذا المنهج يوصل إليه ؛ لذلك قال الله سبحانه عمَّن يتبعون منهجه :

﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ..(٢٢) ﴾ [المجادلة]

أى : أنهم يدخلون فى حزب يختلف عن أحزاب البشر التى تختلف أو تتفق فى فكر البشر .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ..(١٧) ﴾ [هود]

والمقصود بهم كفار قريش عبدة الأوثان ، والصابئة [1] واليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله ﷺ ، وكل منهم جماعة تمثل حزباً ، ويقول عنهم الحق سبحانه :

﴿ ..كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) ﴾ [المؤمنون]

ومن يكفر من هؤلاء برسالة رسول الله وبرسول الله فالجزاء هو النار ، وبذلك بيَّن لنا الحق سبحانه أن هناك حزبين : حزب الله ، والأحزاب الأخرى ، وهما فريقان كلٌّ منهما مواجه للآخر .

ويقول الحق سبحانه لرسوله ، والمراد أيضاً أمة محمد ﷺ :

(١) الصابئون : يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقيل : هم عبَّاد الملائكة ، أو عبَّاد الكواكب والنجوم ، أو عبَّاد النار . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ .. (٦٢) ﴾ [البقرة] فهم غير اليهود والنصارى [انظر : القاموس القويم ١/ ٣٦٥].

﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ [1] مِّنْهُ .. (١٧) ﴾ [هود]

أى: لا تكن يا رسول الله فى شك من ذلك ؛ لأن رسالتك وبعثتك تقوم على أدلة البينة والفطرة والهدى والنور المطلوب من الله تعالى ، والشاهد معك ، كما شهد لك من جاء من قبلك أنك جئت بالمنهج الحق :

﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .. (١٧) ﴾ [هود]

والحق - كما علمنا من قبل - هو الشىء الثابت الذى لا يعتريه تغيير ، وهذا الحق لا يمكن أن يأتى إلا من إله لا تتغير أفعاله.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ .. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧) ﴾ [هود]

وهؤلاء لا يؤمنون عناداً ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، ومَنْ يمتنع عليها هو مجرد معاند.

والحق سبحانه يقول فى مثل هؤلاء المعاندين :

﴿ وَجَحَدُوا [2] بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا [3] أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

أى: أنهم مع كفرهم يعلمون صدق الأدلة على رسالة رسول الله ﷺ ، وعلى صدق بعثته ، فيكون كفرهم حينئذ كفر عناد ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، فيكون من يمتنع على الإيمان بهذه الأدلة إنساناً معانداً.

---

(١) مرية : الجدل والشك. وهناك قراءة بضم الميم. [القاموس القويم].

(٢) جحد الحق يجحده جحوداً : أنكره وهو يعلمه. وجحد النعمة : أنكرها ولم يشكرها. وجحد بالآية : كفر بها.
وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ .. (٥٩) ﴾ [هود] [القاموس القويم].

(٣) استيقن الأمر واستيقن به : مثل أيقنه وأيقن به ، من اليقين وهو الشىء الثابت الواضح الذى لا شك فيه. واستيقنتها أنفسهم : أى : علمتها نفوسهم علماً واضحاً. [القاموس القويم].

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ[1] عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ[2] هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

هذه الآية تبدأ بخبر مؤكد فى صيغة استفهام، حتى يأتى الإقرار من هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً، والإقرار سيد الأدلة.

والواحد من هؤلاء المفترين إذا سمع السؤال وأدار ذهنه فى الظالمين، فلن يجد ظلماً أفدح ولا أسوأ من الذى يفترى على الله كذباً، ويقر بذلك.

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتى هذا الخبر فى صيغة استفهام، ليأتى الإقرار اعترافاً بهذا الظلم الفظيع.

وهؤلاء المكذبون يُعرَضون على الله مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [هود]

والعرض إظهار الشيء الخفى لنقف على حاله.

ومثال ذلك فى حياتنا: هو الاستعراض العسكرى حتى يبيِّن الجيش قوته أمام الخصوم، وحتى تُبلغ الدولة غيرها من الدول بحجم قوتها.

---

(١) افترى القول: اختلقه واخترعه. وافترى عليه الكذب: اخترعه. ويقول تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس] أى: اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه.

(٢) الأشهاد: أى: الشهداء بالحق، وأشهاد: جمع شهيد، مثل أيتام جمع يتيم، والشهيد صفة مشبهة. [القاموس القويم]. وفى تعيين الأشهاد فى هذه الآية أقوال: الملائكة الحفظة - الأنبياء والرسل. وقال قتادة: الخلائق أجمع. قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٣٦).

وكذلك نجد الضابط يستعرض فرقته ليقف على حال أفرادها ، ويقيس درجة انضباط كل فرد فيها وحسن هندامه ، وقدرة الجنود على طاعة الأوامر .

ومثال آخر من حياتنا : فنحن نجد مدير المدرسة يستعرض تلاميذها لحظة إعلان نتائج الامتحان ، ويرى المدير والتلاميذ خزى المقصر منهم أو الذى لم يؤد واجبه بالتمام .

فما بالنا بالعرض على الله تعالى ، حين يرى المكذبون حالهم من الخزى ؟

ذلك أنهم سيفاجأون بوجود الله الذى أنكروه افتراءً ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ [1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ..(٣٩) ﴾ [النور]

فأىُّ خزى - إذن - سيشعرون به ؟ !

ويُظهر الحق سبحانه وتعالى ما كان مخفيّاً منهم حين يعرض الكل على الله تعالى مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ..(٤٨) ﴾ [الكهف]

وكذلك يُعرضون على النار ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا [2] ..(٤٦) ﴾ [غافر]

---

(١) السراب : ما يُرى فى نصف النهار على الأرض الفضاء كأنه ماء ، وليس بماء . وهو ظاهرة متعلقة بخداع البصر . والقيعة : الأرض المستوية المنخفضة عما يحيط بها من مرتفعات وكذلك «القاع» . يقول تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) ﴾ [طه] [القاموس القويم] . والأرض الصفصف هى الأرض المستوية الملساء ، أى : إن الجبال تزول فلا يكون لها أثر ، ولا ترى فى مكانها ارتفاعاً ولا هبوطاً ولا عوجاً .

(٢) الغدو : الدخول فى أول النهار . والعشى : آخر النهار . وهذه الآية قيلت فى حق فرعون وآله . وتمامها : ﴿ .. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] وهذه الآية أصل فى إثبات عذاب القبر عند أهل السنة . انظر : [تفسير ابن كثير ٤/ ٨١] .

وهكذا يظهر الخزى والخجل والمهانة على هؤلاء الذين افتروا على الله تعالى .

وهو سبحانه يعلم كل شىء أزلاً ، ولكنه سبحانه شاء بذلك أن يكشف الناس أمام بعضهم البعض ، وأمام أنفسهم ، حتى إذا ما رأى إنسان فى الجنة إنساناً فى النار ، فلا يستثير هذا المشهد شفقة المؤمن ؛ لأنه يعلم أن جزاء المفترى هو النار .

ويا ليت الأمر يقتصر على هذا الخزى ، بل هناك شهادة الأشهاد ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول فى نفس الآية :

﴿ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ .. (١٨) ﴾ [هود]

والأشهاد جمع له مفرد ، هو مرة «شاهد» ، مثل «صاحب» و«أصحاب» ، ومرة يكون المفرد «شهيد» مثل «شريف» و«أشراف» .

والأشهاد منهم الملائكة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ مَا يَلْفِظُ (١) مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (٢) (١٨) ﴾ [ق]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (٣) (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴾ [الانفطار]

---

(١) اللفظ : إخراج الشىء من الفم . والمراد به : التكلم . واللفظ : الرمى والإلقاء عامة . ومنه حديث ابن عمر أنه سئل عما لفظ البحر فنهى عنه . أراد ما يلقيه البحر من السمك إلى جانبه من غير اصطياد . [اللسان : مادة لفظ] .

(٢) الرقيب العتيد : الحاضر المستعد لإثبات ما يتكلم به الإنسان فى كتاب الحسنات والسيئات . [القاموس القويم] .

(٣) الحافظون : أى : الملائكة الرقباء والمحافظون عليكم . يقول تعالى : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) ﴾ [الطارق] أى : ملك حافظ لها رقيب عليها . ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ..(٦١) ﴾ [الأنعام] أى : ملائكة يحفظونكم ويراقبون أعمالكم . [القاموس القويم] .

أو شهود من الأنبياء الذين بلغوهم منهج الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١)﴾ [1] [النساء]

وأيضاً الشهيد على هؤلاء هو المؤمن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فيبلِّغها إلى غيره ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (١٤٣)﴾ [البقرة]

وكلمة «الشهادة» تعنى: تسجيل ما فعلوا ، وتسجل أيضاً أنهم بُلِّغوا المنهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التى تقتضى العقاب ، لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بنص ، ولا نص إلا بإعلام.

ولذلك نجد القوانين التى تصدر من الدولة تحمل دائماً عبارة «يُعمل بالقانون من تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية».

إذن: فعمل الأشهاد أن يعلنوا أن الذين أنكروا الرسالة والرسول قد بُلِّغوا المنهج ، وبُلِّغوا أن إنكار هذا المنهج وإنكار هذا الرسول هو الجريمة الكبرى ، وأن عقوبة هذا الإنكار هى الخلود فى النار.

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو العدل نفسه ؛ لذلك فلا عقاب إلا بالتأكد من وقوع الجريمة ، لذلك لا بد من شهادات متعددة ، ولذلك يأتى الشاهد

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال: قال لى رسول الله ﷺ: اقرأ علىَّ القرآن. قال: فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل. قال: إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى، فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (٤١)﴾ [النساء]. رفعت رأسى أو غمزنى رجل إلى جنبى، فرفعت رأسى فرأيت دموعه تسيل. أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٠) والبخارى فى صحيحه (٥٠٥٥).

من الملائكة ، وهو من جنس غير جنس المعروضين ، ويأتى الشاهد من الأنبياء وهو من جنس البشر إلا أنه معصوم .

وكذلك يأتى الشاهد من الإخوة المؤمنين الذين يشهدون أنهم قد بَلَّغوا منهج الإيمان ، ثم تأتى شهادة هى سيدة الشهادات كلها ، وهى شهادة الأبعاض على الكل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ [1] ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت]

فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين .

وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزوم له ؛ لذلك نجد السؤال هنا «لِمَ» ؛ لأن الجوارح كانت هى أدوات المذنبين فى ارتكاب الجرائم ؛ لأن اليَد هى التى امتدت لتسرق ، واللسان هو الذى نطق قول الزور ، والقلب هو الذى حقد ، والساق هى التى مشت إلى المعصية .

والإنسان - كما نعلم - مركَّب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكوِّن الكل الإنسانى ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذى يأمر اليد لتمتد وتسرق ، أو تمتد لتربت على اليتيم ؛ والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فإما أن يأمرها بأن تنظر إلى جمال الكون ، وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام .

---

(١) يُوزعون : يُمنعون عن التفرق ويُجمعون فى مكان واحد . والوزع : الكف والمنع . يقال : وزعت الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم ، فيمتنع عليهم التفرق والانتشار . [انظر : لسان العرب - مادة : وزع] .

إذن: الجوارح خادمة مطيعة مُسخَّرة لذلك الإنسان وإرادته ، لكن الأمر يختلف فى الآخرة ، حيث لا أمر لأحد إلا الله .

والحق سبحانه القائل:

﴿ .. لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصى رغمًا عنا ؛ لأننا كنا مُسخَّرين لكم فى الدنيا ، والآن انحلَّتْ إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله.

وهكذا تعترف الأشهاد ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود]

وما داموا قد كذبوا على ربهم ، فالمكذوب عليه هو الله ، ولا بد أن يطردهم من الرحمة ، وهم قد ارتكبوا قمة الظلم وهو الشرك به والإلحاد (١) وإنكار الرسول ﷺ والرسالة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا (٢) وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) ﴾

---

(١) الملحد: العادل المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه. يقال: قد ألحد فى الدين أى: حاد عنه. والإلحاد الظلم فى الحرم، وهو أيضاً الشك فى الله، والميل عن الإيمان به. [انظر: لسان العرب - مادة لحد].

(٢) عوج: مال وانحنى ولم يكن معتدلاً. وعاج عوجاً (بفتح العين والواو)، وعوجاً (بكسر العين وفتح الواو). قال تعالى: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ .. (٢٨) ﴾ [الزمر] أى: قرآناً مستقيماً فى مبادئه وأحكامه. وقال تعالى: ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .. (١٩) ﴾ [هود] أى: أن الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله يريدون سبيل الله معوجة. [القاموس القويم].

وهنا يحدثنا القرآن عن هؤلاء الذين كفروا بالله وآياته ورسوله ﷺ ، ولم يكتفوا بكفرهم ، بل تمادوا وأرادوا أن يصدوا غيرهم عن الإيمان.

وبذلك تعدَّوا في الجريمة ، فبعد أن أجرموا في ذواتهم ؛ أرادوا لغيرهم أن يُجرم.

وسبق أن أنزل الحق سبحانه خطاباً خاصاً بأهل الكتاب ، الذين سبق لهم الإيمان برسول سابق على رسول الله ﷺ ، ولكن أعماهم الطمع في السلطة الزمنية فطمسوا الآيات المبشرة برسول الله في كتبهم ، وهم بذلك إنما صدُّوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن تسير الحياة معوجَّة.

يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾ [آل عمران]

وقد أرسل الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعدل المُعوجَّ من أمور المنهج. والعوج هو عدم الاستقامة والسوائية ، وقد يكون في القيم ، وهي ما قد خفي في المعنويات ، فتقول: أخلاق فلان فيها عوج ، وأمانة فلان فيها عوج.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا [1] (١) ﴾ [الكهف]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الله سبحانه:

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .. (١٩) ﴾ [هود]

---

(١) ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ : أي: أنه قرآن مستقيم سليم في أحكامه ومبادئه ولا اعوجاج فيه. [القاموس القويم] بتصرف.

أما فى الأمور المحسة فلا يقال: «عوَج» ، بل يقال: «عَوَج» ، فأنت إذا رأيت شيئاً معوجاً فى الأمور المحسة تقول: عَوَج [1] .

لكننا نقرأ في القرآن قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا [2] (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا [3] (١٠٧) ﴾ [طه]

وقد أوردها الحق سبحانه هنا بهذا الشكل لدقة الأداء القرآنى ؛ لأن هناك عوجاً حسياً يحسه الإنسان ، مثلما يسير الإنسان فى الصحراء ؛ فيجد الطريق منبسطاً ثم يرتفع إلى ربوة ثم ينبسط مرة أخرى ، ثم يقف فى الطريق جبل ، ثم ينزل إلى واد ، وأى إنسان يرى مثل هذا الطريق يجد فيه عوجاً .

أما إذا كنت ترى الأرض مبسوطة مسطوحة كالأرض الزراعية ، فقد تظن أنها أرض مستوية ، ولكنها ليست كذلك ؛ بدليل أن الفلاح حين يغمر الأرض بالمياه ، يجد بقعة من الأرض قد غرقت بالماء ، وقطعة أخرى من نفس الأرض لم تمسها المياه ، وبذلك نعرف أن الأرض فيها عوج لحظة أن جاء الماء ، والماء - كما نعلم - هو ميزان كل الأشياء المسطوحة .

---

(١) قال ابن منظور فى اللسان (مادة عوج) : «هو بفتح العين مختص بكل شخص مرئى كالأجسام، وبالكسر بما ليس بمرئى كالرأى والقول، وقيل: الكسر يقال فيهما معاً، والأول أكثر».

(٢) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ : القاع : الأرض المستوية المنخفضة عما حولها . والصفصف: الأرض الملساء المستوية . أى : أن الجبال تزول، فلا يكون لها أثر . [القاموس القويم].

وذكر ابن كثير فى تفسيره أن الله تعالى يُذهب الجبال عن أماكنها ويمحقها ويُسيرها تسييراً، فيجعلها - أى: الأرض - قاعاً صفصفاً، أى: بساطاً واحداً، والقاع هو المستوى من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى استواء الأرض يومئذ، وقيل: الذى لا نبات فيه والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم ولهذا قال: ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ أى: لا ترى فى الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً . قاله ابن عباس وعكرمة وآخرون . (ابن كثير ٣/ ١٦٥).

(٣) ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه] أى : أنها ملساء مستوية، لا انحراف فيها يمنة ولا يسرة ، فلا ميل فيها مطلقاً ولا انخفاض فيها ولا ارتفاع . [القاموس القويم].

ولذلك حين نريد أن نحكم استواء جدار أو أرض ، فنحن نأتى بميزان الماء ؛ لأنه يمنع حدوث أى عوج مهما بلغ هذا العوج من اللطف والدقة التى قد لا تراها العين المجردة.

وفى يوم القيامة يأتى أصحاب العوج فى العقيدة ، ويصورهم الحق سبحانه فى قوله :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ [1] لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ [2] لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) ﴾ [طه]

هم - إذن - يصطفُّون بلا اعوجاج ، كما يصطف المجرمون تبعاً لأوامر من يقودهم إلى السجن ، فى ذلة وصَغَار [3] ولا ينطقون إلا همساً.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) ﴾ [هود]

والسبب فى صَدِّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحال مُعْوجاً ومائلاً ، وأن يُنفِّروا الناس من الإيمان ليضمنوا لأنفسهم السلطة الزمنية ويفسدون فى الأرض ؛ لأن مجىء الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما ينتفعون به بالفساد.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ ﴾ أى: يوم القيامة الذى يرون فيه هذه الأحوال والأهوال فيستجيبون مسارعين إلى الداعى حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم. وقال قتادة: لا عوج له أى: لا يميلون عنه وخشعت: سكنت. [تفسير ابن كثير : ٣/ ١٦٥].

(٢) خشعت الأصوات: خفتت وهدأت ، كناية عن شدة الرهبة والخوف يوم القيامة. [القاموس القويم - ١/ ١٩٤]

(٣) الصغار (بفتح الصاد المشددة) : الخضوع فى ذل ومهانة. [لسان العرب - مادة : صغر]